الفصل الثامن

نماذج من أدب الرسائل عند أدباء الصحراء

1- رسالة من الحاج «أبي القاسم بن الحاج محمد بن أحمد البليلي» إلى سيدي «بوعمامة بن سيدي محمد بن الحبيب».

2 ـ رسالة من الأمير «كاوي ابن السلطان أم علي» إلى الشيخ «سيدي المختار بن سيدي أحمد بن سيدي بوبكر الكنتي».

3ـ رد على الرسالة من «سيدي المختار بن سيدي أحمد بن سيدي أبي بكر الكنتي».

4ـ وصية من الشيخ «سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار بن سيدي أحمد بن أبي بكر الكنتي، ثم الوافي». وهي جملة من النصائح والأدعية.

obeikandl.com

رسالة من الحاج أبي القاسم بن الحاج محمد بن أحمد البليلي، إلى سيدي بوعمامة بن سيدي محمد بن الحبيب:

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وسلم

محبنا في الله وأعز الناس عندنا، أعني به السيد الفاضل سيد أقرانه المكرم سيدي أبو عمامة بن سيد محمد بن الحبيب.. الكتاب إليك من عند محبك على الدوام الحاج أبي القاسم بن الحاج محمد بن أحمد البليلي. ألف سلام عليكم ورحمة الله وبركاته وعلى جملة من معك، وإليك وإن سألت عن ماذا ضاع لك على يد أبناء أحمد بن محمد البوشقي لليوم ما جبروا شيئا لأجل اليهود، فلهم ولاصار عندهم شيء ولا أحد فيض شيئا.. لا البشير ولا غيره. وأمر الشريعة ما خاطبناه خائف عن مضيع حقهم، وهذا كثير من الناس يبغون منه كما في شريف علمك، والحاج محمد بن ففة تلاقينا معه يوما وراح وهو قاعد في جعبوب عند المرابط.

واليوم إن كتبتم أنتم ووالدك لإخوان البشير لعله يسلك، وأما أخيهم ما نظن يصير منه شيء، هذا إذا كنتم يعني يخسرون من عند أنفسهم. ونعلمك في الخلطة التي بيني وبينك ترى العقد أرسلناه لأخينا الحاج محمد إذ أوجدت الذهب ذاك المراد لأجل عليه صار الكلام.

وأن ما تيسر يكون الريش حتى نسلك، ووصيتنا على المدفعة ستة عشر وجها، وغدار ستة وجوه وعمايرهم اشترياه أنهم عندنا في غدامس.

خائف أن أرسلهم لأجل ما، ثم من يحتفظ عليهم ويتوكل كما ينبغي، والثاني على نظرك في قيمتهم وتتسع يأتي عليهم بحسابكم قوب ذهب والأمانة محبوب كانت تحبهم أعلمنى أرسلهم على يد عب، وعلمناكمْ غلى قيمتهم والبضاعة التي عندك لي والتي هي الذهب أولى لنا لأجل عليه صار الكلام، وإلا ما تيسر تدفع لأخينا الحاج محمد على ذمتك يباع في الطرابلس، وبقولي إنك ما بقيت اليوم تاريخ أواسط ذي الحجة 1201 هـ.

* * *

رسالة من الأمير كاوي بن السلطان أم علي إلى الشيخ سيدي المختار بن سيدي أحمد بن سيدي أبي بكر الكنتي

الحمد لله الذي لا يخذل من تولى، ولا ينصر عبد عنه تخلى، والصلاة والسلام على نبيه المصطفى وعلى آله الشرفاء وأصحابه أولي العدل والوفاء وبعد.. فيسلم السلطان كاوي بن السلطان أم على وسيلته لولي أمره ومالك نفعه وضره الشيخ سيد المختار بن سيد أحمد بن سيد بوبكر الكنتي قائلاً: سبب أشخاص البراءة «الرسالة» إلى ساحتك الفسيحة ومنارتك الرفيعة المستضيئة إعلامك أن قد بلغنا قولك البليغ وكتابك البديع، أكد لنا استقامة رأيك وعقلك وجود علمك وفضلك فقابلناه بما هو أهله من الترحيب والتقبيل وحسن الطاعة والتبجيل، فاستقرأناه بحسن الاستماع حتى أخذ منا بمجامع الطباع، وخضعت له الأعناق لما فيه من عجائب الأعلاق، ففهمنا مافيه من التنبيه لا التمويه، وقلنا متبرئين مما عسى أن يظن بنا من الموجرة على الوقيعة المعهودة التي لا نعدها إلا من الأمور المحمودة، فإن الرأي ما رأيت والأساس ما بنيت.

إذا قالت حزام فصدقوها فإن القول ما قالت حزام

واعلم يا شيخنا ووسيلتنا إلى ربنا أن قلوبنا من التعلق بما لا ترضاه سليمة، فمعاذ الله أن تنسب إلى الأولياء من أحد منا جريمة. فلا والله ما حملنا فعلتك إلا على السداد، وإنها من نتائج التوفيق والإمداد، فمن أين الدير وأعزتك داعية اليقين بفل سيوف من خلعوا ربقة الديانة عن أعناقهم وحسبوا قلائد المكر والبغي أحسن أطوافهم، بل أبطلنا أراجيف المشاة وهو نابر خاريف الوشاة، ولقد ارتكب أبناء حماد صعبا حيث سلوا من تلقائك غضبا وظلموا لك من شدة الحقد ركبا، فقد توقعوا إن لم يقلعوا من ولي المتقين حربا لجهلهم بقدرهم وجوازهم لطورهم. وأما علي بن محمد بن رحال فليس ممن يباريك في المجال بل أمره عندنا سهل وسيصلك فيه قول فصل وهو أنه لنا بمنزلة المملوك الراعى وأنت بمكانة الوالد الشفيق المراعي، ولكل منكما ما يناسب مقامه من حب فشتان ما بين

المقامين وهيهات ما بين المحبين. ألا ترى أنه خفضت لأخمصك نفسي، أفأرفع عليك أحدا من أبناء جنسي، فلقد قلت رأيي تشوفت إلى ذلك ونقصت همتي أن استشرفت إلى ما هنالك، بل الحق الذي لم يشب بشائبة الشك والريب والله ولي الشهادة والغيب أنني راضٍ أن أشتري نزرا من رضاك بحذافير الدنيا فكيف بأدناها، فهون عليك أمر هذا اللئيم ولو جفا، فإن الكريم إذا قدر عفا كيف يعز من اتخذ الدنيا سنادا والشيطان ركنا وعمادا والمكوس طرفا وتلادا، أم كيف يهون من المعرفة إحساس بنياته، والموافقات قيد عيانه، والمخالفات معدن عدوانه، ومن كان مولاه العزيز أعزه فلا يقدر أحد أن يهينه، هذا وقصارى أمره معنا أنا لما انتبذنا في أماكن كثيرا من أموالنا وشف جلبه غالبا على عمالنا رأينا أن نوليها ونستر عيبها من يقوم بأمرها، فوجدناه بذلك زعيما ماهرا في سياسته، صابرا نفسه على رعايته من غير أن نطمعه بذلك في شف غبارك ولا أن نسمن ورمه ببدارك، إنما هو في الخسة هو وأنت في الرفعة أنت، وكيف يقاس العزيز بالرفيع؟ أم كيف يبارى الظليع بالضليع؟ فها نحن سيوفك القاطعة ورماحك القامعة، فأصب بنا مقاتل من أردت ووال بنا أولياء ربك، وعاد بنا أعداء وليك فالله ناصرك وخاذلهم، وأما لآدم والسكاكنة الذين أرسلت إليّ في شأنهم، فقد تركتهم لك رمضا، ونفضت يدي من غبار صعيدهم نفضا، فوالله لو سألتني ما بيدي من الدولة لنزلت لكَ عنها. وخليت أمرها. فمالي لا أرضى بذلك، وفوق ما هناك. وأنا أرجو من الله أن يجعلك لي حرزا مكينا وحصنا حصينا ويدفع عني بك وبذريتك عاجلا وآجلا كل هم وغم وشماتة عدو، وحسد حاسد، ومكر ماكر. أبقاك الله لنا وأبقانا لك، ولارمى بيننا وبينك بسهم الفراق إلا بالمواطن والمباني لا بالأرواح والمعاني.

هذا وإني سائلك أمرا فلا عليك أن تتكرم به علينا وهو الرجوع إلى بلادك، والمباعدة محل بعادك، وأن تكون بمحل لا يخفى علينا فيه أمرك، كما كان قبل، وتعتزل الأرض المعرضة لثوران الفتن، فلقد جربناها ورأينا سكانها وأولي ولايتها من تدمكت وغيرهم يترامحون ترامح الحمر ويتآكلون فيما بينهم تآكل دواب البحر في اللج، وكفى في هذا المقام الإشارة دون طول العبارة.

* * *

رد على الرسالة من سيدي المختار بن سيدي أحمد بن سيدي بن بكر المنتى

يقول الشيخ: الحمد لله الذي لا راد لقضائه، ولاغنى عن فضله وعطائه، والصلاة والسلام على من أكرمه الله بحقائق آلائه، وعلى آله وصحبه وعترته وأزواجه وأبنائه، هذا وإنه من عبد ربه المختار بن أحمد بن أبي بكر الكنتي إلى عيبة نصحه وكرشه، ومحل محبته وأنسه، سلالة الأخيار والأبرار، ومعدن الجود والفخار، ومحك حال القاصدين من جميع الديار والأمصار ومن أينعت شماريخ مجدهم فعلت وشمخت معالم قدرهم فجلت، جماعة الأبناء والأحبة النصحاء ومن انضاف إليهم ممن ولاه الله حل الأمور وعقدها من أبناء كردن أدام الله عزهم ورفع مجدهم، أخص من الجميع القاضي الهمام الناصح لجميع الأنام الصالح بن محمد البشير والأمير كاوي ألف سلام عليكما ورحمة الله وبركاته، أما بعد.. فموجبه إليكما أني بليت في هذه الأيام برعاع لئام، لا يفقهون خطابا ولا يردون جوابا، عماهم الجهل والحسد وأضلهم الهوى واللدد، لا يفون بوعد، ولا يثبتون على عقد، قد تحزبوا تحزب الخوارج على السلف. وتألبوا تألب النصارى على الحق فأطفأ الله جمرتهم بالرعب، وصولتهم بالغلب والسلب فحميت السالم وتجافيت عن الظالم وما فعلت ذلك غضبا لنفسي ولا عداوة لهم، بل سبب ذلك أنهم أغاروا على قافلة من فقهاء المغرب من غير سبب وتجردوا لكل نهب وسلب يخبطون في ذلك خبط عشواء ويتبعون فيما هنالك التسويلات والأهواء، فلما رأيت ما هنالك، وتبين لي أن منبع ذلك من كبيرهم حماد، أمرت المدن بالإغارة عليه وإهانته ليكف عما هو عليه من الحرابة، فلما أغاروا على غيره من قومه وجيرانه رددت عليهم أموالهم حتى الحبال كما سيخبرهم به الوارد عليكما، فلما رجعنا من ناحية تنبكت بعد الإغارة على بنيه تعرض بعض قومه مستشفعين في رد إبله، فرددتها عليهم بعدما أخذت عليهم العهود والمواثيق على الكف والأخذ على

أيدي أبنائهم وسفهائهم فلم يفوا بشيء من ذلك، بل قال عامة سفهائهم: لا قوة لي ولا عون سوى المدن وأنهم متى ذهبوا ورجعوا إلى أهليهم فعلوا ما سولت لهم أنفسهم وزينته شياطينهم وتعاقدوا على ذلك، فلما حققت ذلك بعثت إلى من بعثت إليه من كناتة لأريهم أنهم لا قوة لهم على ماهموا به وسولته أنفسهم، فلما اجتمعوا علي اذبعر كل منتصر اذبعرار الحجل، فكففت الناس عنهم بند القدرة عليهم رجاء ثواب الله العظيم وتحرجا عن أخذ أموالهم وسفك دمائهم، فجاءني من كان يزعم التحزب منهم يتلطف ويدفع بالراح، فقبلت ذلك منهم على أن يكفوا على الواردين والمسافرين ويراجعوا ما كانوا عليه من المسكنة وترك الحرابة فتحملوا ذلك والتزموا ما هنالك، وإنما كررت طلب الخير منهم مع جناياتهم وعدم وفائهم أخذا للحجة عليهم وليكون ذلك معذرة إلى الله تعالى يوم القيامة. ولقد ورد عليّ كتاب من بعض صلحائهم أنهم نكثوا أيضا في الرابعة، لأن جميع من ينسب إلى الصلاح منهم ومعه حبل ومودة ومناصحة وقليل ملهم، ومن سواهم متعصب مالم يخف فإذا خيفوا تبرأ بعضهم من بعض، واعلموا أن كل تشغاين وكل تكنكنت وأكلاد البحر غزوا لآدم إلى آخر إملاء الواقعة، ثم قال: «فلا تسمعوا قول واش ولاساع بخداع فإن القوم قد غشت قلوبهم ظلمات الفتنة، والهوى والحسد والمكر ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله». وقد استحلوا الكذب والبهتان جرأة على الله تعالى وجعلوا الظلم ربا ومفخرا مع ضعفهم وأصفق على ذلك عربهم وعجمهم وأشدهم في ذلك من يدعي العلم زيغا وسفها وغره بالله وجهلا بأحكام الله وسنة رسول الله. قال الله تعالى: ﴿**أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾[1]، وقال: ﴿**وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ**﴾[2] وقال: ﴿**إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا**﴾[3] وقال ﴿ **وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ** ﴾[4] وقال صلى الله عليه وسلم: (الظالم أحق أن يحمل عليه)،

(1) سورة هود، من الآية ١٨.
(2) سورة إبراهيم، من الآية ٤٢.
(3) سورة الكهف، من الآية ٢٩.
(4) سورة الشعراء، من الآية ٢٢٧.

وقال (رحم الله عبدا كان لأخيه قبله مظلمة من عرض أو مال فأتاه فتحلله قبل أن يأتي يوم القيامة وليس عنده دينار ولا درهم)، وقال: (من اقتطع حق امرئ مسلم أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة، قال رجل: ولو كان شيئا يسيرا يا رسول الله؟ قال: ولو كان قضيبا من أراك) وقال: أوحى الله إلي يا أخا المرسلين أنذر قومك فلا يدخلون بيتا من بيوتي وعند أحد منهم مظلمة لعبادي فإني ألعنه مادام يصلي بين يدي حتى يرد تلك المظلمة إلى أهلها). وقال الشاعر:

ولو بقي جبل يوما على جبل لاندك منه أعاليه وأسفله

وفى المثل: من طال عدوانه زال سلطانه، وقال معاوية: إنى لأستحيي أن أظلم من لا يجد علي ناصرا إلا الله. وقال أبو العيناء: كان لى خصوم ظلمة فشكوتهم إلى أحمد بن داود فقلت له: قد تظاهروا عليّ وصاروا يدا واحدة فقال: يد الله فوق أيديهم. فقلت: إن لهم مكرا. قال: ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله فقلت: هم كثير. قال: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله. وقال بعض الحكماء: اذكر عند الظلم عدل الله فيك وعند المقدرة قدرة الله عليك ولا يعجبنك رحب الذراعين السفاك للدماء فإن له قاتلا لا يموت، وقال النبى صلى الله عليه وسلم في حديث قدسي يرويه عن ربه قال: (اشتد غضبي على من ظلم من لا ناصر له غيري).

وقد عالجت القوم أشد المعالجة لأني عالجتهم بالإحسان إليهم، فلما لم يجد أمسكت، ثم عالجتهم بالإغضاء والصفح عنهم، فلما لم يجد عالجتهم بالتهديد مع الإمساك بعد القدرة عليهم، فلما لم يجد فررت منهم لأن الفرار من ثوران الفتى واجب، قال الشاعر:

إذا شاع في أرض فساد ومنكر وليس بها ناه مطاع وزاجر
ففر ولا تقم بساحة بلدة يموت بها عرف وتحيى المناكر
فإن عقاب الذنب عند جفائه يخص وإن يظهر تعم المحاور

(1) سورة البقرة، من الآية ١٩٣.
(2) سورة الحشر، من الآية ٥.

والله يعلم نيتي فيهم وفي غيرهم فإني لا أريد بالجميع إلا الإصلاح ما استطعت. قال الله تعالى: ﴿ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾[1] ومن ذلك القاعدة الشرعية أنه يجوز قتل الثلث لإصلاح الثلثين، وكذلك العقوبة المالية إذا جرت إلى كف المعتدين كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بتحريق دار ابن أبيرق وأصحابه «بما دار سويلم اليهودي» وتحريف مسجد الضرار وتقطيع نخل بني قريظة حتى قالوا: يا محمد تنهى عن الفساد في الأرض وتفسد فيها بنفسك! فوقع في قلوب الناس شيء من قولهم، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾[2] .. إلى غير ذلك من القواعد الشرعية التي لا يشم رائحتها إلا سماسرة العلماء، ولذلك جعل حركات العلماء وسكناتهم كلها عبادة لأنها مبنية على حق وحقيقة، بخلاف الجاهل فإن عبادته جناية لخلوها عن التحقيق، إذ ربما ظن المنكر معروفا فأمر به وظن المعروف منكرا فنهى عنه، فالكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى، وإياكم أن يختلج في قلوبكم غير هذا فإنى بلغني أن بعض المنافقين وشى إليكم ببعض التمويهات في إذلالي حمادًا وبنيه غرة وحسدا فلا تزكوا من جرحه الله وكذبه بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾[3] فالنميمة على قسمين: سعاية، وهي ما كان إلى الأمراء على وجه الفساد في أخذ مال مسلم أو هتك حرمته أو قتله، والنميمة إنماء الحديث بين المتحابين لإيقاع الفرقة والشحناء وصاحبها وهو القتات، روى أن رجلا سعى إلى بلال بن أبي بردة برجل وكان أمير البصرة، فقال له: انصرف حتى أكشف عنك فكشف عنه فإذا هو ولد الزنا. روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ألا أنبئكم بشراركم؟ قالوا بلى: قال: النمامون المفسدون الأحبة الباغون البرك العيب، وقال: ملعون ذو الوجهين، ملعون ذو اللسانين، ملعون كل شفار، ملعون كل فتان» وأما السعاية إلى السلطان فهي المهلكة الحالقة لما فيها

(1) سورة البقرة، من الآية ١٩٣.

(2) سورة الحشر، من الآية ٥.

(3) سورة الحجرات، من الآية ٦.

من التغرير بالنفوس والأموال. لأنها تسلب العزيز عزه وتحك المكين عن مكانته، وللسيد عن مرتبته، فكم دم أراقه سعي ساع فليتق الله ربه رجل ساعدته الأقدار، ويصغي إلى ساعية ساع أو يستمع لنميمة نمام، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: شر الناس النمام ومصدقه شر منه. روي أن رجلا كتب إلى الصاحب بن عباد بطاقة يستحثه فيها على أخذ مال يتيم وكان مالا كثيرا وافرا فكتب على ظهر البطاقة: النميمة قبيحة وإن كانت صحيحة، فالميت رحمه الله والساعي لعنه الله واليتيم جبره الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقال بعض الحكماء: احذر أعداء العقول ولصوص المودات، وهم السعاة والنمامون إذا سرق اللصوص المتاع سرقوا هم المودات، وفي المثل: من أطاع الواشي ضيع الصديق، وكل ذي نعمة محسود وكل واش كذوب، وكل منافق طعان لعان والثقة بمن لا دين له تغرير، واتهام ذي الدين حوب كبير وتصديق الكذوب زيغ وتكذيب الصدوق إلحاد والدين صدق ونصيحة، والنفاق كذب وخديعة ومن لا أمانة له فلا تأمنه ومن لا نصيحة له فلا تستأمنه ومن سل سيف البغى قتل به، ومن حفر لأخيه بئرًا وقع فيها، ومن داهى في الحق هان ومن لم يتدبر عواقب الأمور لان، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ومن يتوكل على غيره ضاع كسبه.

روى أن معاوية كلم الأنحف بن قيس في شيء بلغه عنه، فأنكره الأحنف فقال معاوية: بلغه عنك الثقة فقال له الأحنف: إن الثقة لا يبلغ، وكان الفضيل بن سهل يكره السعاية، وإذا أتاه ساع قال له: إن صدقتنا أبغضناك وأن كذبتنا عاقبناك وإن استقلتنا أفلناك. وكتب في جواب كتاب ساع: نحن نرى قبول السعاية أشد من السعاية لأن السعاية دلالة والقبول إجازةومن أجاز ساعيه فهو شر منه، فاتقوا الساعي فإنه لو كان في سعايته صادقا لكان في صدقه لئيما إذ لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة، وقال المأمون: النميمة لا تتصل بمودة إلا أفسدتها ولا عداوة إلا جددتها ولا جماعة إلا بددتها، ثم لابد لمن عرف بها ونسب إليها أن يجتنب وتخاف معرفته ولا يوثق به في أمر. قال الشاعر:

من نم في الناس لم تؤمن عقاربه على الصديق ولم تؤمن أفاعيه

كالسيل بالليل لا يـدري به أحـد من أين جاء ولامـن أين يأتيه
الويل للعهد منه كيـف ينقضـه والويل للـود منـه كيف يفنيه

واعلم يا كاوي أنى وفيت لك بما عاهدتك عليه من ترك الدعاء على ابن رحال زعما منك أنك تكفه وتتولى منانه، وأنه قد اشتغل بالخداع والتحليق في سلب الساكينة ولآدم النازلين علينا والله يخذله ويجعل كيده في نحره إذ تركهم لنا من هو أولى منه بهم وأقوى منه وأشد شركة من يغربه من مَنْ يغرّمه ويأخذ على رقبته المكوس وهم أولاد مبارك، فإن وفيت بما قلت فأنت وذاك وإن نكثت رفعنا أمرنا إلى الله فيما عودنا إليه وعلى غيره من النصر والظفر فإني لست بعاجز ولا كسلان ولا من تعود الضيم وخفارة الجار والمستجير فاستكن لذلك. قال الشاعر:

إن الكريـم يحلم مالـم يرى أن جـاره قـد أهينـا

واعلموا أن حفظ الجار وحماية الذمار أمر واجب على الكرام دون اللئام وكانت العرب ترى ذلك دينا تدعو إليه، وحقا واجبا تحافظ عليه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن حلف الجاهلية لم يزد الإسلام إلا تأكيدا) قال الله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾[1] وكان أبو سفيان بن حرب إذا نزل به جار يقول: ياهذا إنك اخترتني جارا، واخترت داري دارا فجناية يدك علي دونك، وأن جنت عليك يد فاحتكم احتكام الصبى في أهله، وكان الفرزدق يُعيّر به غالب بن صعصعة. وفي ذلك المعنى يقول الشاعر:

هم يمنعون الجار حتى كأنما لجارهـم بـين السماكين منزل

وروى أن رجلا شيعيا كان يسعى في فساد الدولة العباسية فجعل المهدى لمن دل عليه أو أتى به ألف درهم فأخذه رجل ببغداد فيئس من نفسه فمر به على معن، فقال: يا أبا الوليد فأخذوه منه كرها. وأردفه بعضهم خلفه فذهب الرجل فأخبر أمير المؤمنين المهدي بالقصة فأرسل خلفه من يحضره، فأحضره.. فلما دخل عليه فقال: يا معن أتجير علي؟ فقال: نعم. يا أمير المؤمنين قتلت في طاعتك يوما

(1) سورة الإسراء، من الآية ٣٤.

واحدًا خمسة آلاف فما أملك أن أجير رجلاً واحدًا استجارني، فاستحى المهدى وأطرق قليلا ثم رفع رأسه وقال: قد أجرنا من أجرت يا أبا الوليد. قال: إن رأى أمير المؤمنين أن يُحيي جاره فيكون قد أحياه وأغناه، قال: قد أمرت له بخمسين ألف درهم، قال معن: ينبغي أن تكون صلات الخلفاء على قدر جنايات الرعية وأن ذنب الرجل عظيم، قال الخليفة: قد أمرت له بمائة ألف درهم، فرجع معن إلى منزله ودعا بالرجل ودفع إليه المال ووعظه وقال له: لا تتعرض لمساخط الخلفاء. وروى أن الجراد سقط قريبا من بيت ابن أبي حنبل فجاء الحي فقالوا: نريد جارك، فقال: أما إذا جعلتموه جاري فوالله لا تصلون إليه، فسمي مجير الجراد، وهؤلاء القوم قد استجاروا بالله أولا ثم بي وبك ثانيا. وقد خفر جوارنا رعاع من الناس قد تحزبوا حسدا وبغيا، وقد تحزبوا على ذلك تحزب الخشاش، وتألبوا تألب الفراش أن عاينوا خوفا إذبعروا، وإن أنسوا منا اشمخروا ليس لعائيهم دواء إلا التنكيل الممض والتشريد الملظ. قال الشاعر:

لكل داء دواء يستطب بـه إلا عداوة من عاداك عن حسد

وأنتم الأعوان والإخوان والأبناء وهم الأضداد والشناة والأعداء وقال الشاعر:

إذا كان أعداء على تناصروا فما ذاك إلا من تخاذل إخوان

فإن أظهرتهم لهم ذباب السيف كفوا عن الحيف فرجعت كل خارجة إلى جحرها وأقرت بعجزها وقدرها، قد علم كل أناس مشربهم فهربوا مهربهم وإلا فسيجري ما أرى إلى هزاهز يشيب لهولها الرضيع ويتمطع بسببها الصريع، فالخرق يرقع قبل الاتساع والشيء إنما يحفظ قبل الضياع واللئيم لا يكف إلا بالاهانة والكريم يكف بالإجلال والملاينة. وليكن في علمك يا كاوي أنه لا كلب غيرك ينبح عن غنمي الذئاب وقد تكاووا من كل جانب حسدا وعدوانا وبغيا وطغيانا. قال الشاعر:

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقي مربط المستأسد الضاري.

وأرجو من الله تعالى أن يشتت شملهم، ويفرق جمعهم، قال الرسول صلى

الله عليه وسلم: (الحسود لا يسود) وقال: (قاتل الله الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله)، وقال: (استعينوا على أموركم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود)، وقال: (الحاسد مغتاظ على من لاذنب له)، وفي الحكم: الحسود غضبان على القدر، روى أن رجلا من البادية دخل على المعتصم وقربه وأدناه وجعله نديمه، فنفس وزير الخليفة البدوي لذلك فحسده وقال فى نفسه: إن لم أقتل هذا البدوي أخذ بقلب أمير المؤمنين حتى يبعدني منه، فصار يتلطف بالبدوي حتى أتى به منزله، فطبخ له طعاما فأكثر فيه من الثوم ثم ذهب إلى الأمير في فوره فقال: إن هذا البدوي يزعم إنك بخر ودليل ذلك أنه إذا دخل عليك جعل طرف ردائه على فمه مخافة أن يشم الأمير منه رائحة الثوم، فلما رأى الأمير منه ذلك، قال في نفسه: لقد صدقني الوزير، فكتب الأمير إلى بعض عماله كتابا يقول فيه، إذا وصلك حامل كتابي هذا فاضرب عنقه، ثم دعا البدوي فدفع إليه الكتاب، وقال: امض به إلى فلان وائتني بالجواب، فأخذ البدوي الكتاب وخرج. فلما كان خارج باب الأمير لقيه الوزير فقال: إلى أين تريد؟ قال: وجهني الأمير بكتاب إلى عامله الفلاني. فقال الوزير في نفسه: إن هذا البدوي يحصل له من هذا التقليد مال كثيره، فقال: يا بدوي ما تقول فيمن يريحك مما يلحقك من التعب في سفرك ويعطيك ألفي دينار؟ قال البدوي: أنت الكبير وأنت الحكيم ورأيي تبع لرأيك، فناوله ألفين وتناول الكتاب من يده فركب الوزير من ساعته وسار بالكتاب، فلما قرأ العامل الكتاب أمر بضرب عنق الوزير، فبعد أيام تفكر الأمير في أمر البدوي وسأل عن الوزير فأخبر أنه لم ير منذ أيام وأن البدوي بالمدينة فتعجب من ذلك وأمر بإحضار البدوي فقال: ما شأنك يا بدوي؟ فأخبره بالقصة التي اتفقت له مع الوزير، فقال له الخليفة: أقلت في أني أبخر؟ فقال: معاذ الله يا أمير المؤمنين أن أتحدث بما ليس لى به علم، وإنما كان ذلك منه مكرا وخداعا، وقص عليه إدخاله إياه منزله، ثم خلع على البدوي واتخذه وزيرا، وفي مثل هذا يقول الشاعر:

أيا حاسدا لي على نعمة ... أتدري على من أسأت الأدب

أسات على الله في حكمه لأنك لم ترض لي ما وهب
فجازاك أن زادني في العطا وأغلق دونك باب الطلب

وقال غيره:

اصبر على قتل الحسو د فإن صبرك قاتله

وقال غيره:

يا طالب العيش في أمن وفي دعة رغدا بلا قتر صفوا بلا أرق
خلص فؤادك من غل ومن حسد فالغل في القلب مثل الغل في العنق

وقال الشاعر في آل المهلب:

آل المهلب قوم إن مدحتهم كانوا الأكارم آباء وأجدادا
إن العرانين تلقاها محسدة ولا ترى للئام الناس حسادا

وقال منصور الفقيه:

منافسة الفتى فيما يزول على نقصان همته دليل
ومختار القليل أقل منه وكل فوائد الدنيا قليل

ولما حسد إخوة يوسف عليه السلام آل أمره إلى ما آل إليه من الملك الشامخ والعز الباذخ والاصطفاء والنبوة فساقهم الله إليه من كنعان أذلة عالة ليحكم فيهم بما شاء وكيف شاء فامتحنهم ثم عفى عنهم عندما أقروا له بالفضل واعترفوا بالخطأ فقالوا: «تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين»، ولما رأيت القوم لم يكفوا بالإحسان إليهم والحلم بعد الجرم عاملتهم بطرف من الجهل، فكان ذلك أرد لصولتهم وأكسر لشوكتهم معتمدا على الله تعالى ومستندا إلى قوله تعالى ﴿ **فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ** ﴾[1] فلم أعتد بالمثل تغليبا لجانب العفو، وقال الله تعالى: ﴿ **لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ** ﴾[2]. قال القاضي أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد: ليس

(1) سورة البقرة، من الآية ١٩٤.
(2) سورة النساء، من الآية ١٤٨.

الحلم في كل المواطن محمودا، كما أنه ليس الجهل في كل الأحوال مذموما، وأنشدوا في المعنى:

أبا حسن ما أقبح الجهل بالفتى ... وللحلم في بعض الأحاين أقبح
إذا كان حلم المرء عون عدوه ... عليه فإن الجهل أغنى وأروح
وفي الحلم ضعف والعقوبة قوة ... إذا كنت تخشى كيد من عنه تصفح

وقال آخر:

لن يدرك المجد أقوام وإن كرموا ... حتى يذلوا وإن عزوا لأقوام
فيصفحوا فترى الألوان مصفرة ... لاصفح ذل ولكن صفح أحلام
وأن دعا الجار لبوا عند دعوته ... في النائبات بإسراج وإلجام

وقال النابغة الجعدي، وهو مما أنشده النبي صلى الله عليه وسلم فاستحسنه:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له ... حليم إذا ما أورد الأمر إصدار

وقال الشاعر:

إذا كنت بين الحلم والجهل قائما ... وخيرت أيا شئت فالحلم أفضل
ولكن إذا أنصفت من ليس منصفا ... ولم يرض منك الحلم فالجهل أمثل
إذا جاءني من يسأل الجهل عامدا ... فإني سأعطيه الذي جاء يسئل
ولم أعطه إياه إلا لأنه ... وإن كان مكروها من الذل أجمل

وقال آخر:

أولئك قومي بارك الله فيهم ... على كل حال ما أعف وأكرما

وقال المفضل الضبي:

تعفو الملوك عن العظيم ... من الذنوب لعضلها
ولقد تعاقب باليسير ... وليس ذاك لجهلها
إلا ليعرف حلمها ... ويخاف شدة نكلها

هذا الزمان أكثر أهله هدامون على كل بناء رمادون على كل شواء. قال الشاعر:

متى يبلغ البنيان يوما تمامه ... إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

واعلموا أيها الإخوان في الله أنه لا أحد بعد الله أثق به في الحديث غيركم فجدوا في رد هذه الفتنة قبل استحكامها واجتهدوا في إطفاء هذه الجمرة قبل اضطرامها، فإن دفعكم إياها أخمد لنارها وأدفع لشنارها، واجعلوا ذلكم لله والإخاء فيه لكي تعاونوا على ذلك فإنه ما تصعب أمر أنت داخله بربك ولا سهل أمر أنت داخله بنفسك، ولذلك قال الله تعالى لنبيه ﴿**قُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا**﴾[1] وأن القوم متوجهون إليكم بالرشا لهدم ما بنى الله فإياكم وقبولها فتدلونني بها وهي فانية: ﴿**وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا**﴾[2] فإن اخترتموني عن كل شيء كنت لكم خلفا من كل شيء فكأني المؤنة وأنالني المعونة. قال الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث قدسي يرويه عن ربه: لايعتمد علي عبد من عبادي اعلم ذلك من نيته فيكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من ذلك فرجا ومخرجا وإنما دعوتكم لهذه النازلة مراعاة لقوله تعالى: ﴿**تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ**﴾[3] وقوله صلى الله عليه وسلم: المرء كثير بأخيه. وقوله انصر أخاك

(1) سورة الإسراء، الآية ٨٠.
(2) سورة الكهف، من الآية ٤٦.
(3) سورة المائدة، من الآية ٢.

ظالما أو مظلوما، فقال رجل: يا رسول الله أنصره مظلوما فكيف انصره ظالما؟ قال: امنعه من الظلم واحجره عنه فذاك نصره، وفي رواية فليأخذ على يديه، ومن هذا النمط قول الشاعر:

وإذا يصيبك والحوادث جمة حدث حداك إلى أخيك الأوثق

وقال آخر:

أخوك الذي إن سرك الأمر سره وإن ناب خطب ظل وهو حزين
يقرب من قربت من ذي مودة ويقصى الذي أقصيته ويهين

وقال على بن أبى الحواري: سمعت أبا سليمان الداراني يقول: ليس من علامة الحب أن تحب من يبغضه حبيبك، وقيل لخالد بن صفوان أي إخوانك أعجب إليك؟ قال الذي يغفر زلتي ويقبل عللي ويبلغني في النائبات أملي. روي أن قوما تذاكروا الإخوة في مجلس عبد الملك بن مروان فذكر كل ما عنده وهو ساكت فقالوا له: ما حقيقة الأخوة عندك يا أمير المؤمنين؟ فقال:

إن أخـــاك المصاحب فـــي المر وأيـن المصاحب فـي المر أينـا
الـــذي إن حضـــرت وأنـت في الحي وإن غبت كان أذنا وعينا

وعن جعفر محمد بن علي قال:

أوصاني أبي فقال: يا بني لا تصحب خمسة ولا تجالسهم، لاتصحبن فاسقا، فإنه بائعك بأكلة فما دونها، قلت ياأبت فما دونها؟ قال الطمع فيها فلا ينالها، قلت: يا أبت فمن الثاني؟ قال لا تصحبن خبا فإنه يقطعك أحوج ماتكون إليه قلت: يا أبت فمن الثالث؟ قال: لاتصحبن كذابا فإنه بمنزلة السراب يقرب لك البعيد ويبعد لك القريب، قلت: يا أبت فمن الرابع؟ قال: لاتصحبن أحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك، قلت: يا أبت فمن الخامس؟ قال: لا تصحبن قاطع رحم فإنى

وجدته ملعونا في ثلاثة مواضع من كتاب الله في الذين كفروا وفي البقرة والرعد، والمعتبر في الإخوة إخوة الدين لا إخوة الطين. قال الله تعالي: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1] وفى المثل: الصديق الموافق خير من الشقيق المنافق. وقالوا: جعل الله في الصديق البار عوضا عن الرحم. قال الشاعر:

وكم من بعيد صادق الود مخلص ... وذي رحم داني القرابة قاطع
تمسك بحبل المطمع الوصل واحترس ... وصال سواه من قريب وشاسع

وقال الشاعر:

أخو ثقة يسر بحسن حالي ... وإن لم تدنني منه قرابة
أحب إلي من ألفي قريب ... بنات صدورهم فيها حرابة

وقال آخر:

كيف أجفو من غد تعرفت منه ... خلفا بارعا وودا كريما
لم أقايس به الإخلاء إلا ... كان عند حميدهم مذموما

واعلم يا كاوي إنك عرفتني مواعد حسنة فإن وفيت بها فقد أمطر قرنك وذهب حزنك وهي قولك كل من جاء من أهل القبلة فهو نازل وقد أعطيته لي فلا ينازع فيه منازع الثاني إعطاؤك المواثيق لي أنك لا تخالف لي أمرا ما عشت، الثالث انك لا تبدلني بمال، ولو بلغ من البحر المالح إلى ملك الدنيا تريد العثماني وقد حفظتها عليك فأحصيتها والناس مقبلون عليك على أن تنفض جميع ذلك وهم منافقون كذبة، فإياك أن تطيعهم في ذرة من ذلك فيكون برقك خلبا وعهدك خلفا وأنا في جميع ذلك متوكل على الله وكفى به وكيلا ثم إن العاقل الكريم يفتك به نفض العهد ولو كان المعاهد كافرا. وروى أن سبب الوفاء العقل الوافر والعرض الكامل وعن عامر بن قيس قال: إذا عقلك عقلك عمالا ينبغي فأنت عاقل، وإن العلماء

(1) سورة الحجرات، من الآية ١٠..

مثلوا العقل فجعلوا له جوارح كجوارح الجسد ففمه وعيناه البراءة من الحقد والحسد وأذنه الفهم ولسانه الصدق وقلبه صحة النية ويده الرحمة وقدمه السلامة من الغش وسلطانه العدل ومركبه الوفاء وسلاحه لين الكلام وسيفه الرضا ورمحه المصالحة، وسهمه التحبب، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (العدة دين، وويل لمن وعد ثم أخلف) قالها ثلاثا. وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعدا تخلفه فيكون قطيعة بينك وبينه. ومن حديث علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أحب أن تدوم له مودة أخيه فلا يعده مواعدا فيخلفه) ومن حديث أنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تحملوا لى بستٍ أتحمل لكم بالجنة قالوا: وما هى يا رسول الله؟ قال: إذا حدث أحدكم فلا يكذب، وإذا وعد فلا يخلف وإذا ائتمن فلا يخن وغضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم وكفوا أيديكم. ومن حديث على بن موسى الرضا قال حدثني أبي عن أبيه عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من عامل الناس ولم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم فهو من كملت مروءته وظهرت عدالته، ووجبت أخوته وحرمت غيبته) ومن حديث الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلي وزعم أنه مسلم، من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان) ونظم بعضهم في المعنى فقال:

وإذا منعت منعت منعا بينا ... وأرحت من طول العناء الراغبا

وإذا وعدت الوعد كنت كغارم ... دينا أقر به وأحضر كاتبا

حتى أنفذه على ما قلته ... وكفى عليك به لنفسك طالبا

ولما مدح الله نبيا من أنبيائه قال: «إنه كان صادق الوعد» وكان يقال آفة المروءة خلف الوعد، وكان إبراهيم بن يسار أوفى خلق الله بوعده. قال له إنسان مرة انتظرني حتى آتيك، فقال: إما إلى أن تجيء فلا، ولكن أنتظرك إلى العشاء مخافة أن يخلف الوعد. روى أن عبد الله بزعم وعد رجلا أن يزوجه ابنته ثم تمادى به

الأمر حتى حضره الموت فبعث إليه فزوجه، وقال: كرهت أن ألقى الله بثلث النفاق. وقال بعض الحكماء: المواعيد سحاب والمطر الوفاء بها، وكان علي يقول: خير المقال ما صدقه الفعال، وقال: ليس في البرق اللامع مستمتع لمن يخوض الظلمة، ما أحسن المقال إذا صدقه الفعال، وقد أنشدوا فقالوا:

يقول فيحسن القول ابن ليلى ... ويفعل فوق أحسن ما يقول

وقال أحنف بن قيس: خير الصنائع إنجاز وعد، ووفاء بعهد. وقال يحيى بن خالد: المواعيد من شباك الكرام يصطادون بها محامد الأحرار، وقال المثنى بن حارثة: لأن أموت عطشا أحب إلي من أن أخلف وعدا. وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: لا تعدوا الناس بما لا تناله أيديكم فإن اليأس إحدى الراحتين، وقال جعفر: إن محمدا اعتذر من منع أجمل من وعد ممطول، وكان يقول: وعد الكريم نقد وتعجيل، ووعد اللئيم منع وتسويف، وروى عن بعض الحكماء أنه قال: الوعد نافلة والإنجاز فريضة فلا تفرض على نفسك فريضة وعد لا تنوى إنجازها، فيعود ما طلبت من المحمدة مذمة، ومن المصافاة ملاحاة. وعن الحسن: فضل الفعال على الكلام مكرمة. وفضل الكلام على الفعال عار. وأنشد:

إن المعلى بن أيوب له شرف ... مازال يرفع أحيانا فترتفع

إن قال أفعل شيئا فهو فاعله ... أو قال: لا لم يكن في غيرها طمع

واعلموا أنى لا أقيم على الضيم. قال الشاعر:

ولا يقيم بدار الذل يألفها ... إلا الأذلان عبد الحي والوتد

هذا على الهون مربوط برمته ... وذا يشبح فلا يرثي له أحد

وقال صالح بن عبد القدوس:

وإذا رأيت الرزق عز ببلدة ... وخشيت فيها أن يضيق المذهب

فارحل فأرض الله واسعة الفضا ... طولا وعرضا شرقها والمغرب

وقال غيره:

يلومنني أن بعت بالرخص منزلي ولم يعلموا جارا هناك ينغص

فقلت كفوا الملام فإنما بجيرانها تغلو الديار وترخص

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾[1] وقال صلى الله عليه وسلم: (الهجرة لا تنقطع إلى يوم القيامة)، وليس بين هذا وبين قوله صلى الله عليه وسلم: (لا هجرة بعد الفتح) تناقض، فقد قال ابن الصلاح: معناه لا هجرة واجبة على أصحابه حينئذ لتغلبهم على الكفرة وأمنهم الفتنة كما قال الله لهم: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾[2] فقد وقع ذلك في آخر دولته صلى الله عليه وسلم وبتمام دولة الشيخين، فإذا ثارت الفتنة وجبت الهجرة كما أخبر بذلك الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم، والله تعالى المسئول في إنجاز السول وبلوغ المأمول وهو حسبنا ونعم الوكيل.. والسلام عليكم لا يحول ولا يزول.

❄ ❄ ❄

(1) سورة النساء، من الآية ١٠٠.

(2) سورة الأنفال، من الآية ٣٩.